المحاضرة رقم 5

الرواية الجزائرية المعاصرة

1 -الرواية: المفهوم -النشأة -التطور:

الرواية من الفنون التي استحوذت على اهتمام كثير من النقاد والدارسين مذ تأسست، وتشكلت ملامحها الأولى. فقد كثرت التعاريف التي تحاول وضع اصطلاح محدد لها. وعلى هذا الأساس تباينت بعضها مع بعض انطلاقا من اختلاف وجهات النظر، والمدارس، والمنطلقات الفكرية. فالرواية حسب محمد عبد السلام الشاذلي هي: «منهج فني لبناء مشاعر مؤثرة من خلال تسلسل ما، سواء تحقق بأسلوب المقامة أو بأسلوب الفصول التصويرية أو بأسلوب المذكرات والرسائل...الخ. طالما كانت هذه الوسائل الفنية ملتحمة في عمق وصدق بمشاعر الشخصية الروائية التي يقدمها لنا الكاتب الروائي» [1].

وقد لا يقنعنا هذا التعريف نظرا لبساطته المتناهية وبعده عن مختلف التعقيدات التي نلمحها في التعاريف الحديثة. وفي خضم البحث المتواصل عن جذور هذا الفن الذي وفد إلى الأدب العربي عن طريق الاحتكاك بالغرب، اتفقت كثير من الآراء حول منشأ الرواية، فيقول صاحب كتاب نظرية الأدب: «هي في أرفع أشكالها، الحفيد الوليد للملحمة التي تعتبر هي والمسرحية شكلين أدبيين عظيمين» [2].

ولعل البحث في الجذور يؤدي بالضرورة إلى طرح جملة من المقارنات والموازنات بين أمور عدة، قد تجيب ولو بالقليل عن بعض الأسئلة التي تفرض نفسها. والعودة إلى الوراء تضعنا أمام محك التنظير واستكشاف الخصائص والمميزات، ومن هذا الاعتبار «كانت الجمالية الكلاسيكية الألمانية أولى من طرح مشكلة نظرية الرواية على مستوى المبادئ، وقد انتهجت في ذلك طريقة منطقية، ووضعت في الحسبان كلا من الجانب المنهجي والجانب التاريخي. فهيجل حين يقول بأن الرواية عبارة عن ملحمة بورجوازية إنما يطرح في وقت واحد المسألة الجمالية والتاريخية فهو يعتبر الرواية كشكل فني بديل للملحمة في إطار التطور البورجوازي» [3]. ومسألة التحول، والتغير هي ظاهرة صحية في الأدب مع مختلف أجناسه وأشكاله. وعليه تعرّض جورج لوكاتش (G.Lukacs) بالدراسة «إلى أن التشكلات الأولى والكبيرة للتصوير الحكائي كانت عبر الملحمة بمثالها الهوميري،

---

[1]) عبد السلام محمد الشاذلي: شخصية المثقف في الرواية العربية (1882–1952) ط1. دار الحداثة. بيروت 1985. ص36.

[2]) رينيه ويليك، أوستن وارين: نظرية الأدب. ترجمة: محي الدين صبحي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1987. ص221.

[3]) جورج لوكاتش: الرواية. ترجمة: مرزاق بقطاش. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ص13.

يقابل ذلك -فيما بعد -الشكل النموذجي لآخر مجتمع طبقي: الرأسمالية، والذي هو الرواية» [1]

مع وجود اختلاف جوهري في كون «الملحمة تصوير حكائي لبطولات فرد متسق مع الجماعة وغياب التناقض بينهما فالأبطال الهومريون يعيشون ويتحركون في عالم تتسربل أشياؤه بالشعر الذي هو صفة كل طارف وجديد بينما الرواية هي التعبير النموذجي للتناقض الاجتماعي في زمن مغاير»[2] وإذا كان البطل هو المحرك الفعلي والفاعل في كل منهما فلا «يختلف حال البطل، في علاقته بالرواية والملحمة، عن حال اللغة الموزعة عليهما، فبطل الرواية، وهو شخصية إشكالية تعريفا، يبحث عن موضوع أضاعه بأدوات تزيده ضياعا، أو يبحث ضائعا، عن موضوع لم يلتق به أبدا. أما الملحمة التي لا تعرف الفردية، فتحدّث عن وجود جوهري يتطلع إلى المطلق ويذهب إليه. فلا اغتراب ولا ضياع، والمسافة بين الإنسان وهدفه مستقيمة ولا انحراف فيها»[3].

وضمن مسار التشكل واكتساب الملامح التي تميز فن الرواية، وتؤسس لها واقعها الأدبي المستقل، و«يعتقد أغلب النقاد الانجليز والأمريكيين أن الرواية تأصلت في القرن الثامن عشر، وينبغي أن تهيّئ نظرية شاملة للنوع الأدبي بعض الشرح لسبب ظهورها في ذلك الوقت» [4].

وقد برز إلى الوجود نوعان من النقاد ولكل نوع وجهة هو موليها «فقد حاول النقاد الذين ركزوا على ملامح التشكل في الرواية أن يبرهنوا على أن وجهات النظر الشخصية وتسجيل الوعي أصبحا مهينا في الأدب حين بدأت الفلسفة والفكرة السياسية والمجتمع تؤكد على استقلالية الفرد. أما النقاد الذين يعتبرون الرواية تصويرا للواقع الاجتماعي فيعتقدون أن ظهورها علامة على انبثاق الطبقة الوسطى بوصفها قوة تشكل التاريخ، منهية بذلك الفترة التي صوّر فيها الأدب كل الشخصيات، ما عدا أفراد الطبقة الأرستقراطية، فظة ومضحكة وغير جديرة بالتعامل الجاد» [5]. وهناك فن آخر يدعى الرومانس (Romance) اقترنت به الرواية من حيث ظهورها، فقد ميزت كلارا ريف (Clara Reeve) سنة 1785 بين ما يعرف بالرومانس [6]. والرواية (Roman) بقولها: «الرواية صورة عن الحياة الواقعية

---

[1]) عواد ناصر: نظرية الرواية عند جورج لوكاتش. مجلة الحرية اللبنانية. تموز 1979. ص50.

[2]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

[3]) فيصل دراج: نظرية الرواية والرواية العربية. ط1. المركز الثقافي العربي. المغرب 1999. ص14.

[4]) والاس مارتن: نظريات السرد الحديثة. ترجمة: حياة جاسم محمد. المشروع القومي للترجمة 1998. ص20.

[5]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

[6]) تعرفه مترجمة كتاب نظريات السرد الحديثة بقولها: الرومانس نوع من التخييل النثري يختلف عن الرواية في كونه نتاج المؤلف لإنتاج جهد لتمثيل العالم الواقعي على نحو يجعله يبدو محتمل الوقوع، ولذلك تكون أحداثها بعيدة عن أحداث الحياة الاجتماعية. ينظر الكتاب المذكور ص335.

وعادات الناس، وعن العصر الذي كتبت فيه. أما الرومانس المكتوبة بلغة رفيعة منمقة، فتصف ما لم يحدث أبدا وما لا يحتمل حدوثه أبدا»[1].

لقد حلّت نظرية السرد خلال الأعوام الأخيرة محل نظرية الرواية. ويعرّف صاحب كتاب المصطلح النقدي جيرالد برنس (Gerald Prince) السرد (الذي يقابله بـ: (Narration بقوله: «الحديث أو الإخبار (كمنتج وعملية وهدف وفعل وبنية وعملية بنائية) لواحد أو أكثر من واقعة حقيقية أو خيالية (روائية) من قبل واحد أو اثنين أو أكثر (غالبا ما يكون ظاهرا) من المسرود لهم، ومثل هذه النصوص (وقد تكون مهمة) الالكترونات عناصر مؤلفة للذرات، وماري طويلة وبيتر قصير، وكل البشر ميتون وسقراط ميت، والأزهار حمراء وبنفسجية وزرقاء، والسكر حلو وكذلك أنت. لا تؤلف سردا لأنها لا تعرض أية واقعة، وفضلا عن ذلك فإن أي تمثيل درامي يقدم وقائع (رائعة جدا) لا يؤلف سردا أيضا لأن هذه الوقائع بدلا من أن تروى تحدث مباشرة على المسرح، ومن ناحية فإن نصوصا قد لا تكون مهمة من قبيل " قام الرجل بفتح الباب" و " السمكة الذهبية ماتت" و " الكأس سقطت على الأرض" تعبر سردا وفقا لهذا التعريف» [2].

وكرست مدرسة الشكلانيين الروس فضل السبق في تأسيس كثير من مصطلحات الأدب بشكل عام، والتي تلبست بمنطق العلمية. فكانت الأعمال السردية تتحكم فيها جملة من المصطلحات المتعددة من مثل الحكاية (Fable)، والموضوع (Sujet)، والحوافز (Motifs)، والقصة (Histoire)... «ويميز الشكليون الروس الحكاية (Fable) وهي التتابع السببي الزمني الذي هو القصة أو مادة القصة مهما تنوعت أساليب سردها، من الموضوع (Sujet) وهذه الكلمة يمكن أن تفسر بمصطلح البنية السردية. إن الحكاية هي جماع الحوادث الرئيسية المتكررة كلها، في حين أن البنية السردية هي التقديم الفني المنظم لكل الحوادث الرئيسية المتكررة» [3]. ويعتمد سعيد يقطين في كتابه (تحليل الخطاب الروائي) تعريف تودوروف (Todorov) للقصة (Histoire) من كونها «تعني الأحداث في ترابطها وتسلسلها وفي علاقتها بالشخصيات في فعلها وتفاعلها. وهذه القصة يمكن أن تقدم مكتوبة أو شفوية بهذا الشكل أو ذاك» [4]. والأمر نفسه في تعريف الخطاب (Discours) فهو «يظهر لنا من خلال وجود الراوي الذي يقوم بتقديم القصة، وبحيال هذا الراوي هناك القارئ الذي يتلقى هذا الحكي» [5].

---

[1]) رينيه ويليك: نظرية الأدب. ص225.

[2]) جيرالد برنس: المصطلح السردي. ترجمة: عابد خزندار. المشروع القومي للترجمة. 2003. ص145.

[3]) رينيه ويليك: المرج السابق. ص228.

[4]) سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي. ط1. المركز الثقافي العربي. المغرب 1989. ص30.

[5]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

والخطاب يتمثل في التأسيس الكلامي الذي يضعه صاحب العمل السردي ويرتبه حسب ما تقتضيه سياقات السرد ومستوياته. ويعرفه هاريس بأنه «ملفوظ طويل، أو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض.» [1].

2- رواية تيار الوعي :

في مسار تطور الرواية، يبرز في أوائل القرن العشرين توجه أدبي جديد بدا كظاهرة تعبيرية جديدة عرف باسم: تيار الوعي (Stream of Consciousness) تزعمه الفرنسي دي جردان (De Jardin) وطوره كل من جيمس جويس (James Joyce)، فرجينيا وولف (Virginia Wolf). ومعنى هذا الأمر «أن يلتزم الكاتب بالكشف عما يدور في نفس شخوصه بعيدا عن تقدم الحدث أو الحوار الملفوظ -ومن غير تقيد بالترتيب النحوي أو المنطقي للكلام -وذلك محاكاة لتطور الأفكار في الذهن الذي يثب من موضوع لآخر دون قاعدة أو نظام معين. والغرض من اللجوء إلى هذا النوع من السرد في الرواية هو الكشف عما سماه علماء النفس بمستويات الوعي السابقة على التعبير. ويلاحظ أن هذه المناجاة تظهر خالية من علامات الترقيم، وأن الغرض من تسجيلها هو الإيحاء بحركة العقل المتدفقة المستمرة بكل ما تشمل عليه من تداعي المعاني في غير ربط ولا منطق» [2].

إن هذه الظاهرة الجديدة في الرواية كان من نتائجها كسر البنية الخطية المستقيمة، بسبب التداعي المستمر والمتتابع لمجريات الوعي والشعور. ونتج لنا ما سمي برواية الحداثة التي تهتم كثيرا بمسألة الوعي وما يتبعها من التعامل مع مجالات اللاوعي وما تحت الوعي في العقل الإنساني، وينتج عن ذلك طبعا تضاؤل أهمية البنية التقليدية في فن السرد، التي كانت تقوم أساسا على أحداث خارجية موضوعية تفقد سيطرتها التامة على القصة في الرواية التقليدية» [3].

وفي نطاق العبث بمعالم الزمن ومحاولة الانفلات من قبضته، تصبح الرواية الجديدة مختلفة الملامح والسمات «إن الرواية الجديدة لا تقص علينا حدثا ماضيا بل هي تبسط أمامنا حقيقة -حقيقة من نوع خاص -تدور أمامنا، وعندئذ يتجلى الزمن الروائي، فهو زمن ليس قبله زمن.. وليس بعده أيضا زمن آخر.» [4].

---

[1]) المرجع نفسه. ص17.

[2]) مجدي وهبة: الاتجاهات الحديثة في الرواية المعاصرة. مجلة عالم الفكر. المجلد 03. ع03. سنة1972. ص5–6.

[3]) ياسر داغستاني: الكتابة الروائية والحداثة. مجلة مواقف. المجلد 34–36. ع35. سنة1979. ص100.

[4]) نعيم عطية: دلالة الزمن في الرواية الحديثة. المجلة 29. ع170. سنة1971. ص25.

وهكذا يصير تراتب الأحداث عشوائيا، وكأن هناك حالة تخبط تتحكم في مصائر الشخصيات والأحداث. فإذا أخذنا الزمن عند جيمس جويس لا نجده زمنا ميكانيكيا خارجيا، وإنما هو تلك الحالة الشعورية التي تعبر عن طبيعة حياتنا الداخلية، والتي يمكن اتضاحها بالشكل الذي يستطيع الإفصاح عن ذكرياتنا وأحلامنا ومختلف تخيلاتنا التي تراودنا [1].

وكذلك الأمر مع الروائي وليام فولكنر Wiliam Folkner إذ يعتمد طريقة الانتقالات الزمنية العديدة وهو يسوق الزمن في شكل خليط بين حالات مختلفة [2].

3-بدايات الرواية الجزائرية المعاصرة:

لقد كان حظ الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية أوفر مقارنة بالرواية العربية وقد كانت السياسة الاستعمارية سببا مباشرا في تأخر ظهورها لأسباب ثقافية واجتماعية أشرنا إليهما سابقا. «ولعل هناك ظروفا كثيرة أسهمت في جعل من يكتب باللغة القومية مجهولا إلى حد ما في حين أنها أسهمت في التعريف بمن يكتب باللغة الأجنبية في الجزائر حتى إن بعض الدارسين للأدب الجزائري الحديث في البلاد العربية حين عرضوا لهذا الأدب درسوا الآثار المكتوبة باللغة الأجنبية ولم يشيروا من قريب أو بعيد إلى من يكتب باللغة القومية.» [3]

ومع ذلك فقد وجدت هذه الرواية على استحياء، وأجمع أغلب الدارسين للأدب الجزائري على أن رواية (الطالب المنكوب) التي كتبها (عبد المجيد الشافعي)، وكانت قبل الاستقلال، هي أول عمل روائي جزائري عربي، حيث نشرت في تونس سنة 1951م. وهي قصة مطولة، اعتمدت أسلوب الرومانسية، وبطلها شاب جزائري أحب فتاة تونسية، بل إنه أصبح مجنونا بحبها. ولكنها من الناحية الفنية لا تستوعب مقومات الفن الروائي بالمفهوم النقدي المعاصر. ويمكن أن نشير في هذه العجالة أيضا إلى القصة الطويلة (غادة أم القرى) لأحمد رضا حوحو، وقد كتبها في الحجاز، وموضوعها عاطفي. وقد اخترق به الذوق العام السائد وهو منتوج مدرسة الإصلاح التي كانت تبارك الموضوعات الدينية، والوطنية، والإنسانية.

ويمكن أن تكون البدايات الأولى لظهور فن الرواية الجزائرية العربية التي ترتقي فنيا إلى مستوى جنس الرواية في عام 1967 حيث صدرت رواية (صوت الغرام) لمحمد منيع. وقد

[1]) سعد عبد العزيز: الزمن التراجيدي عند جيمس جويس. مجلة الفكر المعاصر المجلد 10. ع56. سنة1969. ص69.

[2]) للاستزادة، ينظر المجلد 01. مجلة الفكر المعاصر. ع04. سنة1965. ص64 وما بعدها.

[3]) عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث. ص198.

كانت أسباب قلة انتشار هذا الفن تعود إلى ضعف الطباعة، إضافة إلى عوامل ثقافية مثل التعليم التقليدي الذي لم يهيئ الكتاب لإنتاج أدب روائي [1].

وفي شبه مقارنة بين الرواية المكتوبة بالفرنسية، والرواية المكتوبة بالعربية يبدو الفرق شاسعا، وقد يعود هذا التفوق إلى «الخلفية الثقافية للكتاب. فبينما وجد الكتاب بالفرنسية مجالا رحبا للاحتكاك بالثقافة الغربية التي تزخر بالروايات القيمة، افتقر الكتاب بالعربية إلى مثل هذه التجربة.»[2].

[1]) عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري. ص61.

[2]) عايدة أديب بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري. ص62